

دلائل الإعجاز

(لَيْسَ عَلَى [] بِمُسْتَنَكِرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ) .
ولكنَّ لحديث الجنسيةِ هاهُنا مأخذاً آخرَ غيرَ ذلك وهو أنك تَعَمِدُ بها إلى المصدرِ
المشتَقِّ منه الصفةُ وتوجِّهُها إليه لا إلى نفسِ الصِّفةِ . ثم لك في تَوَجِّهها إليه
مسلكٌ دقيقٌ وذلك أنَّهُ ليس القاصِّدُ أن تأتي إلى شجاعاتٍ كثيرةٍ فتجمَعها له
وتُوجدَها فيه ولا أن تقولَ : إنَّ الشجاعاتِ التي يُتَوَهَّـم وجودُها في الموصوفينَ
بالشجاعة هي موجودةٌ فيه لا فيهم . هذا كَلَامُهُ مُحالٌ بل المعنى على أنك تقولُ : كنا قد
عَقَلنا الشجاعةَ وعَرَفنا حقيقتَها وما هي وكيف ينبغي أن يكون الإنسانُ في إقدامِهِ
وبطَاشِهِ حتى يَعْلَمَ أنه شجاع على الكمالِ واستَقَرَّينا الناسَ فلم نجدُ في واحدٍ منهم
حقيقةً ما عرفناه . حتى إذا صِرْنا إلى المخاطِبِ وجدناه قَد استكملَ هذه الصفةَ
واستجمعَ شرائطَها وأخلصَ جوهرَها ورسَخَ فيه سِنْدُها . وَيُبيِّنُ لك أن الأمرَ كذلك
اتفاقٌ الجميع على تفسيرِهم له بمعنى الكامل ولو كان المعنى على أنه استَغَرَّقَ
الشجاعاتِ التي يُتَوَهَّـم كونُها في الموصوفينَ بالشجاعة لما قالوا : إنَّه بمعنى الكامل
في الشجاعة لأن الكمالَ هو أن تكونَ الصفةُ على ما يَنْبَغِي أن تكونَ عليه وأن لا
يخالَطها ما يقدحُ فيها . وليس الكمالُ أن تجتمعَ آحادُ الجنسِ ويندَحُّمَ بعضُها إلى
بعضٍ فالغرضُ إذاً بقولنا : أنتَ الشجاعُ هو الغرضُ بقولهم : هذه هي الشجاعةُ على
الحقيقة وما عداها جُبْنٌ . وهكذا يكون العلمُ وما عداه تَخَيُّلٌ . وهذا هو الشَّعْرُ
وما سواه فليس بشيءٍ وذلك أظهرُ من أن يَخْفَى .
وضربُ آخرُ من الاستدلالِ في إبطالِ أن يكونَ : أنتَ الشجاعُ : بمعنى أنك كأَنَّكَ
جميعُ الشجعانِ على حَدِّ : أنتَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ . وهو أَنَّكَ في قولك : أنتَ الخلقُ
وأنتَ الناسُ كُلُّهُمْ وقد جُمِعَ العالمُ مِنْكَ في واحدٍ تدَّعي له جميعَ المعاني
الشَّريفةِ المتفرقةِ في الناسِ من غيرِ أن تُبْطِلَ تلكَ المعاني وتَنفِيها عن الناسِ بل
على أن تدَّعيَ له أمثالَها . ألا تَرى أنك إذا قلتَ في الرجلِ : إنه معدودٌ بألفِ رجلٍ
فلستَ تعني أنه معدودٌ بألفِ رجلٍ لا معنى فيهم ولا فضيلةَ لهم بوجه . بل تريدُ أنَّهُ
يُعْطِيكَ من معاني الشجاعةِ أو العلمِ أو كذا أو كذا مجموعاً ما لا تجدُ مقدارَهُ
مُفَرَّداً إلاًَّ في ألفِ رجلٍ . وأمَّا في نحوِ : أنتَ الشجاعُ فإنك تدَّعي له أنه قد
انفردَ بحقيقةِ الشجاعةِ وأنه قد أُوتِيَ فيها مزيةً وخصيصةً لم يُؤْتَها أحدٌ